أثر العصبية القبلية في حركة السيرة النبوية

د. ياسر أحمد نور
كلية التربية – جامعة المنصورة
جمهورية مصر العربية

لم يكن العرب في الجاهلية أمة واحدة، بل كانوا قبائل وعصائب متفرقة، ومن ثم مثلت العصبية القبلية أحد أهم المكونات النفسية والاجتماعية للعرب في الجزيرة العربية، وهو ما استحث ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) أن يفرد لها في " المقدمة " حيزا كبيرا، ليرصد من خلالها أثر العصبية في قيام الدول وسقوطها[١].

وعلى الرغم من أن ابن خلدون قد اتخذ منها مدخلا أساسيا انطلق منه لفهم حركة التاريخ الإسلامي إلى عهده، فإنه لم يُعن بتبيان أثرها على حركة السيرة النبوية في عهديها المكي والمدني، اللهم إلا إشارة عامة جاءت في سياق حديثه عن علامات من يصطفيهم الله من عباده لنيل النبوة والرسالة، فقال:" ومن علاماتهم أيضا أن يكونوا ذوي حسب في قومهم .. وأن تكون له (أي للنبي ﷺ) عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته"[٢].

ثم عاد وأشار لهذا المعنى عند استفتاحه للفصل السادس فقال:" إن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية، وفي الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه[٣] "[٤]. والمتأمل في مادة

---

١ انظر بيان ذلك في، ساطع الحصري، دارسات عن مقدمة ابن خلدون، بيروت، ط٣، ١٩٦٧م، ص٣٤٣
H. Gibb, *Studies on the Civilization of Islam,* London, 1962, 167.

٢ المقدمة، بيروت، د.ت، ص٩٣.

٣ بعد الاطلاع على كتب الحديث لم أقف على حديث نُسب إلى النبي ﷺ بهذا النص، وما عثرت عليه في هذا الشأن رواية لدى أحمد في مسنده والترمذي في سننه، أن الرسول ﷺ قال عن النبي لوط عليه السلام في قوله تعالى، { قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} سورة هود/٨٠ ، " قد كان يأوي إلى ركن شديد، لكنه عنى عشيرته، فما بعث الله عز وجل، بعده نبيا إلا بعثه في ذروة –أو ثروة قومه ". ثم علق الراوي أبو عمر الضرير بقوله، " فما بعث الله عز وجل نبيا بعده إلا في منعة من قومه"، إذن فهذا النص من كلام الراوي وليس كلام النبي ﷺ. ابن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، المسند، القاهرة، د.ت، (١٠٩١٦) ٥٣٣/٢، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله، " صحيح وهذا إسناد حسن". الترمذي، محمد بن

هذا الفصل سيلحظ أن غاية ابن خلدون لم تكن إيضاح أثر العصبية في دعم دعوة الأنبيـــاء لاسيما دعوة النبي الكريم ﷺ في قومه، ولكن ليتخذ منها دليلا على أنه إذا كانت دعوة الأنبياء المؤيدين بالخوارق والمعجزات لا تصلح بدون عصبية تحميها، فأثر العصبية آكد بنشأة المُلْك وقيام الدول.

وعلى صعيد الدراسات الحديثة، لم يقف كاتب هذه السطور على بحث استوعب هذا الموضوع ووقف على أبعاده، وهو ما نهض باعثا لولوجه من خلال هذا البحث الموسوم بـــ" العصبية القبلية وأثرها في حركة السيرة النبوية".

أما عن مشكلة البحث فيمكن صياغتها في التساؤلات الآتية.. ما ماهية العصبية القبيلة ؟ وما آثارها على حركة السيرة ومسيرة الدعوة ؟.. وهل كانت طبيعة هذه الآثار واحدة في العهدين المكي والمدني ؟. أم ثمة تباين بينهما ؟.. وما الوسائل والآليات التي اعتمدها النبي ﷺ في مواجهة ما حملته العصبية القبيلة من قيم سلبية ؟.. وكيف تعاطى ﷺ مع الوجه الإيجابي لها ؟.

أما عن خطة معالجة هذا الموضوع فتتم من خلال ثلاثة موضوعات رئيسة:

- بيان ماهية العصبية القبلية.
- أثر العصبية القبلية على حركة السيرة في العهد المكي.
- أثر العصبية القبلية على حركة السيرة في العهد المدني.

أولا: ماهية العصبية القبلية

تعرف "العصبية" لغة بأنها تعني " أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين"[٥].

أما المعنى الاصطلاحي لها فلا يختلف في جوهره عن المعنى اللغوي، ويمكن الوقوف عليه في تعريف ابن خلدون[٦] لها بأنها:" النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم

عيسي الترمذي، السنن، تحقيق، أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، (٣١١٦) ٢٩٣/٥، قال الترمذي، " وهذا حديث حسن"

٤ ابن خلدون، المقدمة ، ص١٥٩.

٥ محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق، محمد عوض مرعب، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ٣٠/٢؛ ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، لسان العرب، بيروت، ط١، د.ت، مادة (عصب) ٦٠٢/١ .

٦ ابن خلدون، المقدمة ص١٢٨.

ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر ..".

أما محمد عابد الجابري[٧] فلم يخرج عما ذكره ابن خلدون في تعريفه للعصبية، فقال هي:" رابطة اجتماعية سيكولوجية (نفسية) شعورية ولا شعورية معًا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطًا مستمرًّا، يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد؛ كأفراد أو كجماعة ".

وللعصبية القبلية مقومات ومظاهر دالة عليها، تتمثل في الآتي:

نصرة القبيلة في الحق والباطل: من القيم المميزة للعصبية القبيلة، أن يهبُّ ابن القبيلة إذا سمع نداء العصبية, حاملًا سلاحه أو بغير سلاح، لينصر أخاه، ولا يسأله: لِمَ؟. وعلى هذا فليس من العصبية والأخوة القبلية أن تسأل أخاك عما وقع له، بل عليك تلبية ندائه وتقديم العون له، معتدياً كان أو معتدىً عليه[٨]. وهذا المعني مأخوذ من المبدأ الجاهلي الشهير " انصر أخاك ظالما أو مظلوما "، ويدل عليه قول جندب بن العنبر

يا أيُّها المرء الكريم المَشْكُوم   انصر أخاك ظالماً أو مَظْلوماً[٩]

و يشير إلى هذا المعنى أيضا حديث واثلة بن الأسقع ﷺ لما قال:".. يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟. قال: لا ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم.."[١٠].

الاحتكام إلى أعراف القبيلة: معلوم أن العرب قبل الإسلام كانت تحكمها أعراف قبلية متنوعة وجب إطاعتها والعمل بها، وقد كانت العصبية القبلية هي أساس النظام، وكان المسئول عن تطبيق هذه الأعراف على أفراد القلبية هو شيخ هذه القبيلة، والذي كان أساس اختياره أن يكون من أشراف رجال القبيلة، ومن أكبرهم سناً، وأقواهم عصبية[١١]. وهذه

---

٧ العصبية والدولة، بيروت، ط٦، ١٩٩٤م، ص١٦٨.

٨ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، بيروت، ط٤ ، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ص٣٩٣ .

٩ أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق، محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م، (٤٢٠٢) ٣٤٣/٢ .

١٠ أحمد بن حنبل، المسند (١٧٠٣٠) ١٠٧/٤.

١١ أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بيروت، د.ت، ص٣١، ٣٣؛ ماجد، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٤٩.

الأعراف منها ما هو حسن كتلك التي تتعلق بدفع ديات القتلى وفض المنازعات بين القبائل، ومنها ما هو سلبي مثل وجوب الأخذ بالثأر بصوره الجائرة كما سيتضح [١٢].

العناية بالأنساب: تعد الأنساب الرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها[١٣]، ومن ثم فهي من الأمور اللصيقة بالعصبية، وأحد أهم مقوماتها، يقول ابن خلدون:" العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب "[١٤]. ولهذا كانت كل قبيلة تعنى بحفظ أنسابها والعناية بها، ويعد هذا الأمر من أهم مهام شاعر القبيلة[١٥]. إلا أن هذا الجانب لم يكن يخلو من وجه ذميم، يتمثل في التفاخر بالأحساب، والطعن في أنساب القبائل الأخرى[١٦].

التمايز الطبقي بين أفراد مجتمع القبلية: كان أهل الجاهلية يعاملون الناس حسب منازلهم ودرجاتهم، ويُعمِلون مبدأ عدم التكافؤ بين الناس، ولهذا ففي إطار القانون العرفي انقسم المجتمع القبلي إلى طبقات اجتماعية ثلاث:

١- طبقة الأحرار أبناء القبيلة الصرحاء: وهم الذين يجمع بينهم الدم الواحد والنسب المشترك.

٢- طبقة الموالي: وهم من انضموا إلى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها عن طريق الجوار أو الحلف أو العتقاء من الأرقاء

٣- طبقة الأرقاء: وهم المجلوبون عن طريق الشراء، أو أسرى الحروب[١٧].

الحلف والولاء: يعد الولاء من خصائص العصبية القبلية، يقول ابن خلدون[١٨]:" ومن هذا الباب الولاء والحلف، إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب، وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء، مثل لحمة النسب أو قريبا منها". والأحلاف كما سيتضح منها ما ينزع إلى التحزب والقتال لنصرة الحليف ولو كان ظالما، ومنها ما يعقد لنصرة المبادئ والقيم الأخلاقية.

---

١٢ جواد علي، المفصل ٣٥٨/٧، ٣٩٨.

١٣ المرجع نفسه ٣١٣/٧ .

١٤ ابن خلدون، المقدمة ص١٢٨.

١٥ مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج١، المنصورة، د.ت، ص٢٣٣.

١٦ لمزيد من التفصيل عن ذلك منافرات العرب ومفاخراتهم في الجاهلية. انظر الألوسي، محمد شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، بيروت، د.ت، ٢٧٨/١ .

١٧ الشريف، مكة والمدينة ص٣٥، ٣٦.

١٨ ابن خلدون، المقدمة ١٢٩/١.

الإجارة: يقصد بالإجارة طلب الحماية والمحافظة على النفس والأهل والمال، وللجوار صلة كبيرة بـــالنسب وبالعصبية عند العرب، فقد يتوثق الجوار وتتقوى أواصره فيصير نسبًا، وقد اندمجت بـــ"الجوار" أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة. وللجوار حرمة كبيرة عند الجاهليين, فإذا قبل شخص إجارة شخص آخر وجبت عليه حمايته، وإلا عد ناقضًا للعهد، ناكثًا للوعد، مخالفًا لحق الجوار. والإجارة لا تطلب إلا من رجل ذات شوكة وعصبية قوية في قبيلته، ليتسنى له حماية المستجير وإلا فلا جدوى من ورائها[١٩].

الأخذ بالثأر: يعد الأخذ بالثأر من خصائص العصبية القبلية، فالقاعدة عن العرب في الجاهلية الدم لا يغسل إلا بالدم، وإذا كان جوهر فكرة أخذ الثأر المقتول من القاتل لا ينكر شرعا ولا عقلا ولا عرفا، إلا أن العصبية القبلية أحيانا ما تحيد به عن جادة العدل والإنصاف، فكانوا لا يقبلون بالقِصاص, إلا ممن يكافئ المقتول في المنزلة والدرجة والمكانة، فلو أن عبدا قتل سيدا من سادات القبيلة، لا يؤخذ الثأر من هذا العبد القاتل بل من أحد أشراف القبيلة التي ينتمي إليها هذا العبد، على الرغم من براءته من هذا الدم. وقد أدي ذلك إلى مفاسد اجتماعية كبيرة حيث ظل هذا الوجه الظالم للأخذ بالثأر تتوارثه الأجيال لعشرات السنين[٢٠].

وبعد أن عرضنا لماهية العصبية القبلية ومقوماتها، نتحول الآن لبيان مدى أثرها على حركة السيرة من خلال سياقها التاريخي المتمثل في مرحلتيها المكية والمدنية.

ثانيا: أثر العصبية القبيلة على حركة السيرة في العهد المكي

نسب النبي ﷺ وأثرة في النهوض بالدعوة :

لعل من المستحسن أن يبدأ حديثنا عن أثر العصبية في العهد المكي، من جانب بيـــان حكمة أن يبعث النبي ﷺ شريف النسب، لوثيق صلة هذا الأمر بالعصبية وأثرها على الدعوة لاسيما في المرحلة المكية، فقد اقتضت إرادة الله تعالى أن يصطفي النبي ﷺ مـــن أشـــرف القبائل وأعلاها منزلة. لذا جاء اصطفاؤه من قريش، وكان هذا الاصطفاء مؤسسا على مـــا آتاهم الله من المناقب العظام، ولاسيما بعد سُكنى مكة، وخدمة الحجيج؛ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك في قوله:" إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانـــة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم "[٢١].

---

١٩ جواد علي، المفصل ٣٦١/٧ ٣٦٢.

٢٠ جواد علي، المفصل ٣٩٩/٧، ٤٠٠.

٢١ مسلم بن حجاج القشيري، الجامع الصحيح، بيروت، د.ت، (٦٠٧٧) ٥٨/١.

ولكن هل من حكمة وراء اصطفائه شريف النسب ؟ ..إن من يتأمل الثقافة العربية سيدرك أن قضية النسب أساس في تكوين الشخصية العربية، هذه الشخصية التي " كانت تستهجن مجهولي الأنساب وتحتقر الخلطاء "[٢٢]. ويمكن أن نقف على هذا المعنى من قول جعفر بن أبي طالب عندما سأله النجاشي عن النبي ﷺ لما هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فقال:".. حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه.."[٢٣]. المقولة نفسها قالها المغيرة بن شعبة ليزدجرد ملك الفرس:" فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه.. "[٢٤].

ولهذا كان النبي ﷺ حريصاً أن يظل نسبه نقياً، وبمنأى عن أي مطعن، لوعيه التام بمكانة الأنساب في الجبلة العربية، وإدراكه لعواقب الأثر السيئ على مسيرة الدعوة الإسلامية لو دُنِس نسبه، إذ سيودى إلي استنكاف الناس وإعراضهم عن دعوته، ولعلنا سنلمس هذا الحرص بجلاء عندما أمر حسان بن ثابت ؓ، أن ينافح عن نسبه لما هجته قريش وطعنت في نسبه يوم غزوة بني قريظة. وقال له:"اهجوا قريشا، فإنه أشدّ عليها من رشق النّبل"، وأعانه على ذلك بأبي بكر" فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها - وإن لي فيهم نسبا- حتى يخلص لك نسبي. فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله قد لخص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين.."[٢٥].

عصبية بني هاشم وبني عبد المطلب وأثرها في حماية الدعوة:

كان بداية ظهور أثر العصبية القبلية على حركة الدعوة في عهدها المكي، لما اضطلع النبي ﷺ بالإعلان عنها عقب فترة من السرية استغرقت ثلاث سنوات، وهنا سايرت الدعوة وراعت التقاليد القبلية السائدة في هذا التوقيت، لذا أمر الله النبي ﷺ أن يدعو عشيرته { وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (٢١٤) سورة الشعراء؛ لأنهم بحكم عصبية القرابة والرحم، سيكونون عوناً له وحماية في وجه العصبيات الأخرى[٢٦].

ولهذا جمع الرسول ﷺ بني عبد المطلب وبني عبد مناف وقال لهم:" إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله

---

٢٢ خليل، عماد الدين خليل، دراسات في السيرة النبوية، بيروت، ط٣، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، ص٤٧.

٢٣ عبد الملك بن هشام الحميري، السيرة النبوي، تحقيق، مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، القاهرة، د.ت، ٣٦/١

٢٤ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، بيروت، ط١٤٠٧هـ، ٣٩١/٢ .

٢٥ مسلم، الصحيح (٦٥٥٠) ١٦٤/٧.

٢٦ الشريف، مكة والمدينة ص٢١٧، ٢١٨.

إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة.. وإنكم لأول من أنذر، ومثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه. فقال أبو طالب: ما أحبّ إلينا معاونتك ومرافدتك وأقبلنا لنصحك وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم، غير أني والله أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أني لا أجد نفسي تطوّع إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه. وتكلم القوم كلاما ليّنا غير أبي لهب فإنه قال: يا بني عبد المطلب هذه والله السّوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنّه ما بقينا"[٢٧].

منذ هذه اللحظة كان أول إعلان من أبي طالب سيد بني عبد المطلب وبني هاشم لإجارة ابن أخيه ﷺ وحمايته، وإن اعتذر عن دخول هذا الدين، وقد تجلت هذه الإجارة فعليا لما أظهرت قريش خلافه وعداوته، يقول ابن إسحاق (ت١٥٢هـ/٧٦٩م):" وحدب (عطف) على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه.. "[٢٨]. ويقول المقريزي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)[٢٩]:" وصان الله رسول الله ﷺ بعمه أبي طالب، لأنه كان شريفا في قومه مطاعا فيهم نبيلا بينهم .."

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن موقف قريش المناهض للدعوة لم يكن مبعثه الذود عن عقيدتها والخشية على دين آبائها فحسب، بل كان يتخفى وراءه تنافس على السيادة والشرف بين عصبيات قريش، وتحديدا بين بطون قريش من جانب وبطون عبد مناف التي كانت تضم عصبية النبي ﷺ من بني هاشم وبني عبد المطلب من جانب آخر، ولهذا لما سُئل أبو جهل رأيه عن دين محمد ﷺ قال:" نازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه"[٣٠].

---

٢٧ أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق، سهيل زكار ورياض الزركلي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ١/١١٨، ١١٩؛ محمد بن يوسف الصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق، عادل عبد الموجود، علي معوض، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، ٢/٣٢٢، ٣٢١.

٢٨ ابن هشام، السيرة ١/٢٦٤؛ محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، بيروت، د.ت، ١/١٢١.

٢٩ إمتاع الأسماع، القاهرة، ط٢، لجنة التأليف والترجمة، د.ت، ١/١٨ .

٣٠ ابن هشام، السيرة ١/٣١٦؛ الصالحي، سبل الهدى ٢/٣٥٢، أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق، عبد المعطي قلعجي، بيروت، ط١، ١٤٠٥ه، ٢/٢٠٦ .

على أية حال فإن عصبية أبي طالب، كانت بمثابة قوة دفع كبيرة للنبي ﷺ في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الدعوة، ولهذا "مضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرا لأمره لا يرده عنه شيء "[٣١].

فلما رأت قريش ما وفره أبو طالب للنبي ﷺ من حماية ومنعة، لم يبادروا أولا بإيذاء النبي ﷺ، خشية من عصبيته ومقامه فيهم، ويظهر ذلك من قولهم له " إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا "[٣٢]، ولكنهم اختاروا أن يجروا بعض المفاوضات والمساومات مع أبي طالب، أملا في أن يثني النبي ﷺ عن عزمه، ولكن جميعها باءت بالفشل، وأعلن أبو طالب موقفه صريحا وأبى إلا الانحياز إلى النبي ﷺ ضد قريش " اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا"[٣٣].

وحسب تسلسل الأحداث لم تنجرف قريش إلى معاداة أبي طالب وإيذاء النبي ﷺ بعد إعلانه هذا الموقف، ولكنهم آثروا أن يستمروا في إعمال سياسة المفاوضات مع أبي طالب، فساوموه على أن يبادلوه عمارة بن الوليد بن المغيرة بالنبي ﷺ، فيسلمه إليهم ليقتلوه، فأبي، يقول ابن إسحاق:" ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة .."[٣٤].

ولعل قريشا أرادت بهذه المحاولة تأليب من كان متعاطفا من ساداتها وبطونها مع أبي طالب ضده، وإظهاره بمظهر المتعنت المتجني على قريش المعادي لدينها، وهو ما مكنهم من تأليف جبهة قوية ضد بني عبد المطلب وبني هاشم، ويصدّق ذلك موقف المطعم بن عدي وغيره الرافض لتوجه أبي طالب في حماية النبي ومعاداة قريش حيث قال "والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا.."[٣٥].

والظاهر أن قريشا نجحت إلى حد كبير في تحقيق مأربها، حيث تفرق عن أبي طالب جمع من بني عبد مناف[٣٦]، وهو ما شجع المشركين على تعذيب من أسلم من بني هاشم وبني عبد المطلب وفتنتهم في دينهم.

---

٣١ ابن هشام، السيرة ٢٦٤/١؛ الصالحي، سبل الهدى ٣٢٦/٢.

٣٢ المصدر نفسه ٢٦٦/١؛ أبو الفتح محمد بن محمد اليعمري (ابن سيد الناس)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، ١/ ١١٨.

٣٣ المصدر نفسه ٢٦٦/١؛ المصدر نفسه ١١٨/١.

٣٤ ابن هشام، السيرة ٢٦٧/١؛ ابن سعد، الطبقات ٢٠٢/١؛ البلاذري، الأنساب ٢٣١/١.

٣٥ المصدر نفسه ٢٦٧/١؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر ١١٨/١.

٣٦ المصدر نفسه ٢٦٧/١.

هنالك أدرك أبو طالب خطورة صنيع قريش على قومه وعلى حياة النبي ﷺ، فاستحث فيهم عصبيتهم للدفاع عن النبي ﷺ وحمايته " فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه فاجتمعوا إليه، وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه" ولم يخذله منهم سوى أبي لهب[٣٧]. وسُرّ أبو طالب لاستجابتهم له وانتصارهم لعصبية بني هاشم بدفاعهم عن النبي ﷺ ويتجلى ذلك فيما نقل عنه في ذلك من شعر، فقال

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا ... هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها[٣٨]

وفي هذا السياق حاول النبي ﷺ استثمار حالة التنافس القبلي بين قريش وبين بني مخزوم من أجل النهوض بالدعوة في طور سريّتها، ويتجسد ذلك في اختياره لدار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مقرا لتبليغ رسالة الإسلام، حيث كان من أسباب اختياره لها أن الأرقم من بني مخزوم التي كانت تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم في الجاهلية، ومن ثم ستستبعد قريش فكرة أن يختفي النبي ﷺ في دار من دور أعدائهم[٣٩].

ولكن قريشا أخذت تشدد وتضاعف من اضطهادها للمؤمنين حتى بلغ ذروته مع أواسط السنة الخامسة من البعثة، ولم يبق أمام الفئة المؤمنة إلا هلاكهم وفناء هذا الدين، ولهذا جاء أمر النبي ﷺ لهم بالهجرة إلى الحبشة ليفروا بدينهم.

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن .. لماذا لم يهاجر معهم النبي ﷺ إلى الحبشة طالما توفرت له الحماية والمنعة بها ؟. في الحقيقة إن عصبية أبي طالب وقومه هي التي مكنته من البقاء في مأمن بمكة، بل أتاحت له فرصة الدعوة لمن يلتقي به فيها من القبائل، وهذا المعنى يشير إليه قول أم سلمة رضي الله عنها :".. وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره ما ينال أصحابه.."[٤٠].

---

٣٧ المصدر نفسه ٢٦٨/١؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر ١١٩/١.

٣٨ المصدر نفسه ٢٦٨/١؛ الصالحي، سبل الهدى ٣٢٨/٢.

٣٩ رزق الله، مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ ١٩٩٢هـ، ص١٩٥.

٤٠ البيهقي، السنن الكبرى، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، (١٧٥١٢) ٩/٩؛ ابن هشام، السيرة ٣٢٢/١.

ولكن تحولا نوعيا طرأ على موقف قريش بعد رحلة المسلمين إلى الحبشة في العام الخامس من البعثة، حيث رأت أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا الحماية والأمن التي وفرها لهم النجاشي بالحبشة، هذا إضافة إلى إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب واللذين مثلا انتصارا وكسبا عظيما للدعوة في هذه الظروف الدقيقة، وهذا كله أسهم في انتشار الإسلام بين عدد من القبائل[٤١].

هنا أجمعت قريش أمرها على قتل النبي ﷺ[٤٢], الأمر الذي استثار حمية بني هاشم وبني عبد المطلب وعصبيهما، فسارعوا بالانحياز إلى أبي طالب في مواجهة جموع القبائل من قريش، وإفشال غايتهم في النيل من النبي ﷺ، الأمر الذي دفع قبائل قريش إلى أن يتعاقدوا على كتابة الصحيفة الشهيرة في العام السابع من البعثة، وقرروا فيها أن لا ينكحوا من بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم، وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة[٤٣].

والثابت تاريخيا أن حادث المقاطعة استمر ثلاث سنوات حتى انتهى في العام العاشر من البعثة، مما يدل على أن باعث الحمية والعصبية كان قويا لدرجة أن صبروا على الجوع والحرمان والإقصاء طيلة هذه الفترة. والمتأمل في كيفية إنهاء هذا الحصار سيدرك أنه جاء بأثر من عامل العصبية والقربى من بني هاشم، وقد قاد هذا التوجه هشام بن عمرو بن ربيعة "وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه"، فكان يتحايل في إمداد بني هاشم وبني عبد المطلب بالطعام وهم محاصرون في الشعب[٤٤]. ولم يتوقف دوره عند هذا الحد بل استحث نازع العصبية والقربى لدى زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، وقال له:" أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت.."[٤٥]، ثم ذهب إلى المطعم بن عدي، فاستحث فيه عصبيته لبني عبد مناف قائلا:" يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش

---

٤١ المصدر نفسه ٣٥١/١؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر ١٤٧/١.
٤٢ ابن سيد الناس، عيون الأثر ١٤٧/١.
٤٣ ابن هشام، السيرة ٣٥١/١؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر ١٤٧/١؛ وات، و.م.، محمد ﷺ في مكة، ترجمة، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة، ١٤١٥هـ، ص ٢٤٨، ٢٤٩.
٤٤ ابن هشام، السيرة ٣٧٣/١؛ وات، محمد ﷺ في مكة ص٢٥٢.
٤٥ المصدر نفسه ٣٧٤/١؛ البلاذري، الأنساب١/٢٣٦.

فيه.."[٤٦]. وكذا كان حاله مع جبير بن مطعم وأبي البختري بن هشام[٤٧]، ونجحوا حقا في كسر هذا الحصار ونقض الصحيفة.

ولم يلبس أبو طالب أن توفي إثر هذا الحصار الظالم، وكان من تداعيات هذا الحدث أن فقد النبي ﷺ العصبية التي أحاطته بالمنعة والحماية، ومكنته من الوقوف أمام كل محاولات قريش للقضاء عليه وتقويض دعوته. يقول ابن إسحاق:" فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب.."[٤٨]. وهذا يتماشى مع قول الرسول:" ما زالت قريش كاعة[٤٩] حتى توفي أبو طالب "[٥٠]، أي مازلت قريش تجبن عن القضاء على الرسول ﷺ طيلة حياة أبي أبو طالب.

وفاة أبي طالب وانقطاع إجارة النبي ﷺ:

والظاهر أن أبا لهب تحركت بداخلة نوازع العصبية لبني هاشم، لِما جرى للرسول ﷺ بعد وفاة أبو طالب، فأراد أن يوفر هذه المنعة التي فقدها فذهب إلى النبي ﷺ يقول له: "يا محمد, امضِ لما أردت وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيّا فاصنعه، ولا واللات لا يوصل إليك حتى أموت". ومكث رسول ﷺ أياما يذهب ويأتي لا يعترض له أحد من قريش وهابوا أبا لهب، إلا أن قريشا سرعان ما أفشلت هذه الإجارة، لمّا أحدثوا الوقيعة بين أبي لهب والرسول ﷺ، عندما سألوه وأجابهم عن مصير عبد المطلب، وهو ما أفضي إلى تحول أبي لهب إلى ما كان عليه من معاداة النبي ﷺ ودعوته[٥١].

توجه النبي ﷺ إلى الطائف للبحث عن عصبية أخرى:

هنا تبدأ مرحلة جديدة وفاصلة من الدعوة، لأن فقدان النبي ﷺ للمنعة والحماية بوفاة أبي طالب، حثه في هذا الظرف الدقيق الحرج، على أن يبحث عن عصبية قوية تجيره وتمكنه من تبليغ دعوته إلى الناس، ولكن واقع الحال بمكة في هذا التوقيت دفع به إلى أن يبحث عن تحقيق هذا المأرب خارجها، وفي الوقت ذاته لابد من ألا يبعد موطن البحث عن مكة كثيرا، كي لا يفقد الميزة النوعية لمكة حيث اجتماع جموع القبائل بها كل عام في موسم الحج.

---

٤٦ المصدر نفسه ٣٧٦/١؛ البلاذري، الأنساب٢٣٦/١.

٤٧ المصدر نفسه ٣٧٦/١؛ المصدر نفسه ٢٣٦/١.

٤٨ المصدر نفسه ٤١٦/١؛ الصالحي، سبل الهدى ٣٤٥/٢.

٤٩ كَاعَةٌ جمع كائع، وهو الجبان. ابن منظور، لسان العرب مادة (عصب) ٣١٧/٨.

٥٠ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، (٤٢٤٣) ٦٧٩/٢.

٥١ ابن سعد، الطبقات ٢١١/١؛ الصالحي، سبل الهدى ٣٤٥/٢.

من هنا وقع اختياره ﷺ على الطائف، ورأى أنها في هذا الظرف أفضل موضع لتحقيق هذه الغاية، عله " يلتمس النصرة من ثقيف والمنع من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ، فخرج إليهم وحده "[٥٢].

ويبدو أن ثمة خصائص أخرى ذات أبعاد اقتصادية وقبلية تفردت بها الطائف، أراد النبي ﷺ أن يستثمرها في تحقيق غايته، تمثلت في أن الطائف كانت تمتلك مركزا سياديا وتجاريا مرموقاً في الحجاز، حيث تلت مكة من حيث الأهمية الاقتصادية[٥٣]، أضف إلى ذلك عامل القربى، حيث كان يقطن بها أخواله من بني سعد، الذين قضي بينهم فترة مهمة من طفولته والتي كان لها أثر كبير في إعداده وتكوينه[٥٤].

على أية حال توجه الرسول ﷺ إلى نفر من سادات ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة: عَبْدُ يَالِيلَ ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير، فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، ولكنهم خالفوه واستهزءوا به، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرجمونه بالحجارة حسبما هو مشهور ومفصل في كتب السيرة[٥٥].

النبي ﷺ يدخل مكة في إجارة المطعم بن عدي:

لم يتحقق للنبي ﷺ ما كان يصبو إليه من رحلة الطائف، ولم يعد أمامه إلا أن يفكر في العودة إلى مكة، وهذا ما عزم عليه حقا ويظهر ذلك في قول زيد بن حارثة ﷺ له ﷺ": كيف تدخل عليهم (يعني قريشا) وهم أخرجوك ؟"[٥٦].

والحقيقة إن الأمر لم يكن هيناً عليه ﷺ، ذلك أن قريشاً ستمعن في الاستهزاء به عندما تعلم بما جرى له في الطائف، بل ستتمادى في إيذائه أكثر من ذي قبل، ولذا لم يكن أمامه إذا أراد العودة إلى مكة، فعليه على عادة العرب وأعرافها أن يدخلها في جوار أحد سادتها ممن يتمتعون بعصبية قوية.

---

٥٢ ابن هشام، السيرة ٤٢٠/١؛ ابن سعد، الطبقات ٢١١/١؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر ١٥٥/١.

٥٣ الندوي، أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ص١٢٨.

٥٤ المقريزي، الإمتاع ٢٧/١، محمد صادق عرجون، محمد رسول الله ، دمشق، ط٢، ١٤١٥هـ ١٩٩٥، ٣٢٠/٢.

٥٥ ابن هشام، السيرة ٤٢١/١.

٥٦ ابن سعد، الطبقات ٢١٢/١؛ الصالحي، سبل الهدى ٤٤١/٢ .

على أية حال أصبح من اللازم التحول بهذا المقصد إلى دائرة الفعل، ولهذا لمّا وصل النبي ﷺ إلى حراء بعث عبد الله بن أريقط إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف والحليف لا يجير على الصّريح. فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب. فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك وقال: نعم قل له فليأت. فرجع إليه فأخبره فدخل رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج المطعم بن عدي وقد لبس سلاحه هو وبنوه وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن يدخل فيطوف بالبيت فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله وكان ذلك إعلاناً منه بإجارته للنبي ﷺ[٥٧]. وفي رواية الطبري(ت٣١٠هـ/٩٢٢م)[٥٨] عن ابن إسحاق قال".. وأصبح المطعم بن عدي قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد، فلما رآه أبو جهل قال أمجير أم متابع قال بل مجير قال فقال قد أجرنا من أجرت..".

ولاشك في أن إجارة المطعم باعثها عصبية العشيرة، حيث إنه ينتمي كما أشرنا إلى أحد بطون بنو عبد مناف التي تنتمي إليها أيضا بنو عبد المطلب عشيرة النبي ﷺ. وهنا يكمن مشكل حيث إن هناك ما يشير إلى أن بني هاشم هم من أجاروا النبي ﷺ بعد دخوله مكة، استدلالا بقول عمه العباس بن عبد المطلب للأنصار لما صحب الرسول ﷺ في لقائه مع الأنصار عند العقبة لبيعتهم:" إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده .."[٥٩]. والحقيقة إن مقصود العباس بالمنعة هنا حماية المطعم بن عدي، حيث لم يثبت أن أحدا من بني هاشم قام بإجارته، كما يشهد على ذلك الوقائع والأحداث.

على أية حال كان لإجارة المطعم بن عدي أثر كبير على حركة السيرة ومسيرة الدعوة بعد أن دخل النبي ﷺ مكة، حيث أتاحت له لقاء القبائل في المواسم، إلى أن انتهى الأمر بلقاء الأوس والخزرج كما هو معلوم. والآكد أن النبي ﷺ كان يعلم جيدا أهمية هذه الإجارة، فلم ينس للمطعم هذا الصنيع على الرغم من موته مشركاً قبل غزوة بدر وله نيف وتسعون سنة[٦٠]، فظل يذكره له بعد وفاته بدليل قوله لما وقف على قبور المشركين يوم بدر:" لو كان

---

٥٧ ابن هشام، السيرة ٣٨٢/١؛ ابن سعد، الطبقات ٢١٢/١؛ الصالحي، سبيل الهدى ٤٤١/٢ .

٥٨ التاريخ ٥٥٥/١.

٥٩ ابن هشام، السيرة ٤٤١/١.

٦٠ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ، ٩٨/٣.

المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له "[61]. ويبدو أنه كان دائم الحديث عن هذه الإجارة بالمدينة بعد الهجرة، ويشير إلى ذلك نعي حسان بن ثابت ﷺ للمطعم شعرا لما توفي[62].

النبي ﷺ يبحث عن عصبية تحمي الدعوة خارج مكة:

بعد عودة النبي ﷺ إلى مكة في جوار المطعم بن عدي ليحاول من جديد أن يحقق هدفه الذي لم يستطع تحقيقه في الطائف، أخذ يتتبع القبائل في منازلهم، فلم يكن يعلم بوصول سيد من سادات العرب ويعلم بمنزله، إلا ذهب إليه ودعاه وقومه إلى الإسلام، فكان " يعرض نفسه في المواسم على القبائل يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به "[63].

وكان الرسول ﷺ يستعين على ذلك بأبي بكر ﷺ في دعوة القبائل والتعرف عليهم[64]، وذلك لمعرفته بأنساب العرب[65]، الأمر الذي ساعد الرسول ﷺ في التعرف على معادن القبائل ومنازلها، فيقع الاختيار على أفضلها، لتحمل تبعات الدعوة[66].

ومن نماذج القبائل التي دعاها النبي ﷺ في هذه المرحلة ما رواه عامر بن سلمة ﷺ أحد بني حنيفة قال:" لقد رأيت رسول اللَّه ﷺ جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ومجنّة وبذي المجاز، يدعونا إلى الله- عز وجل- وأن نمنع له ظهره حتى يبلّغ رسالات ربه، ويشرط لنا الجنّة، فما استجبنا له ولا رددنا عليه ردّا جميلاً فخشنّا عليه وحلم عنا"[67].

كما روى ربيعة بن عباد ﷺ من بني الديل، مشهدا آخر يقول عنه:" إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه

---

٦١ محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، تحقيق، مصطفى الدين ألبغا، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٧٨م، (٣٧٩٩) ١٤٧٥/٤.

٦٢ انظر ابن هشام، السيرة ٣٨١/١ .

٦٣ المصدر نفسه ٤٢٣/١ .

٦٤ الصالحي، سبل الهدى ٤٥٣/٢.

٦٥ إبراهيم علي محمد، السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، قطر، كتاب الأمة، ١٤١٧هـ، ص١١٦

٦٦ محمد علي الصلابي، السيرة النبوية، بيروت، ط٧، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، ص٢٣٢.

٦٧ الصالحي، سبل الهدى ٢/ ٤٥٣.

من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي وتمنعوني، حتى أبيّن عن الله ما بعثني به.."[٦٨].

ولم يخل الأمر من مساومات يشير إلى ذلك ما جرى من بني عامر بن صعصعة لما اشترطوا على النبي ﷺ إن منعوه ونصروا دعوته أن يكون لهم الأمر من بعده، مما يعني أنهم أردوا يحققوا من وراء الدعوة مكسبا سياسياً، يمكنهم أن يسودوا بعصبيتهم على غيرهم من قبائل العرب إن هم نصروها، ولكن النبي ﷺ أبى فأعرضوا عن دعوته وإجارته[٦٩] .

وقد رصد الواقدي (ت٢٠٧هـ/٨٢٢هـ) عددا من هذه القبائل الذين عرض نفسه عليهم فقال:" ..بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن حفصة، وفزارة ، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نضر، وبنو النكا، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعزرة، والحضارمة.. "[٧٠].

وهنا لابد من قراءة تحليلية لهذه الشواهد والوقوف على ما تنطوي عليه من دلائل، فعلى الرغم من عظم أهمية إجارة المطعم بن عدي على صعيد شخص الرسول ﷺ، إلا إن المتأمل في هذا الشواهد سيلحظ أنها لا تحقق مقصده ﷺ بالنسبة للدعوة، بمعنى أنها ليست كافية للقيام بأمر الدعوة ونشرها وحمايتها، ولهذا سنلحظ أن دعوة هذه القبائل إلى الإسلام اقترنت بالبحث عن عصبية تجيره ليحقق بها هذا المقصد.

أما عن الملحظ الثاني فالمتأمل في كل هذه القبائل التي عرض عليها النبي ﷺ نفسه طالبا منهم الإجارة، سيجد أن مواطنهم جميعا خارج مكة، وهنا يكمن التغير الجوهري الذي طرأ على منهجية النبي ﷺ في التخطيط للدعوة، حيث أراد الرسول ﷺ بذلك أن يُدعم بعصبية قوية تمكنه من كسر الطوق الذي فرضته قريش على الدعوة في مكة، والذي كان من مظاهره ما قام به عمه أبو لهب والذي كان " إذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال .. إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم.. فلا تطيعوه ولا تسمعوا

---

٦٨ أحمد بن حنبل، المسند (١٦٠٦٦) ٤٩٢/٣؛ ابن هشام، السيرة ٢٢٤/١.

٦٩ ابن هشام، السيرة ٤٢٥/١.

٧٠ محمد بن أبي بكر بن أيوب(ابن قيم)، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، ٤٣/٣؛ الصالحي، سبيل الهدى ٢/ ٤٥٣.

منه .."[71]. وكذا أيضا أبو جهل كان" يحثي عليه التراب، ويقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى.."[72].

ولا شك في أنه كان لذلك وقع شديد السوء على نفوس السامعين، فكانوا يردون عليه أقبح الرد ويقولون له:" أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك.."[73]. وفي رواية أخرى يقولون:".. قوم الرجل أعلم به أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه .."[74].

وهنا أدرك النبي ﷺ حتمية خرق هذا الحصار الذي لن يكون إلا بالخروج من مكة والدخول في إجارة عصبية تنتصر لهذه الدعوة، وتتيح له ﷺ حرية الحركة في نشر الدعوة على نطاق أوسع وأشمل، ويؤكد هذا المعنى في رواية أبي داود (ت٢٥٧هـ)[75] وغيره كان ﷺ :" يعرض نفسه بالموقف، فيقول: ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي".

عصبية الأوس والخزرج تحيط الدعوة بالحماية والمنعة:

في السنة الحادية عشرة من البعثة التقى النبي ﷺ بنفر من الخزرج عند العقبة، فدعاهم إلى الإسلام فأجابوه وصدقوه، ولعل الملاحظ أن الرسول ﷺ لم يعرض عليهم القيام بإجارته ومنعه لعلمه أن يثرب محل هذه الإجارة، كان الغالب على حالها في تلك الفترة الفرقة والعداء جراء حرب "بعاث"، ومن ثم فعصبية الأوس والخزرج لا تقوى على تحمل تبعات الدعوة في هذه المرحلة، ولهذا قالوا للنبي ﷺ:" إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك "[76].

---

٧١ أحمد بن حنبل، المسند (١٦٠٦٦) ٣ /٤٩٢؛ ابن هشام، السيرة ٢٢٤/١.

٧٢ أحمد بن حنبل، المسند (١٦٦٥٤)٦٣/٤. يقول ابن كثير، "والظاهر أنه أبو لهب". وقد يكون أبو جهل وهما، ويحتمل أن يكون ذا تارة وذا تارة، وأنهما يتناوبان على أذيّة رسول اللّه ﷺ، واختار الصالحي الرأي الأخير. انظر البداية والنهاية، تحقيق، علي شيري، بيروت، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨ه ١٩٨٨م، ٥٥/٣، سبل الهدى ٤٥٢/٢.

٧٣ ابن قيم، زاد المعاد ٤٢٤/١.

٧٤ ابن كثير، البداية والنهاية ١٧١/٣ .

٧٥ السنن، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، د.ت، (٤٧٣٤) ٦٤٧/٢؛ المقريزي، الإمتاع ٣١/١.

٧٦ ابن هشام، السيرة ٤٢٨/١، ٤٢٩.

وفي موسم الحج من العام التالي، أي في العام الثاني عشر من البعثة، التقى النبي ﷺ عند العقبة بوفد من الأوس والخزرج، وكان عددهم اثني عشر رجلاً[٧٧]، فشرح الله صدورهم للإسلام، وبايعوا النبي ﷺ فيما عرف بــ "بيعة العقبة الأولى"، التي عرفت أيضا ببيعة النساء[٧٨]. والملاحظ كذلك في هذه البيعة أن الرسول ﷺ لم يعرض عليهم أمر إجارته ومنعته، لأن الحال ظل كما هو لم يتغير، من ثم أراد النبي ﷺ بعد عقد هذه البيعة أن يغيّر من واقع المدينة، بأن أرسل مصعب بن عمير ﷺ مع هذا الوفد إلى يثرب ليدعو أهلها إلى الإسلام ولهذا سمى بــ" المقرئ "[٧٩].

وربما كان نزول مصعب ﷺ بالمدينة على أسعد بن زرارة ﷺ جاء بتوجيه من النبي ﷺ، حيث كان أسعد نقيبا وسيدا لبني النجار من الخزرج، وبنو النجار هم أخواله ﷺ، فلعله أراد أن يتقوى بهذه القرابة ليعنوا بأمر الدعوة بالمدينة. ومن ناحية أخرى كان لعامل العصبية أثره في إسلام بني عبد الأشهل، حيث لمّا أسلم أسيد بن حضير ﷺ بعد لقائه بمصعب أرشده إلى دعوة سعد بن معاذ ﷺ، وقال له:" إن ورائي رجلاً – يقصد سعد بن معاذ– إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكم الآن " فلما جاءه سعد وأسلم بعد أن دعاه مصعب للإسلام، ذهب إلى بني عبد الأشهل وقال لهم:" كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة "[٨٠]، لم تبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، ولا يستثنى منهم ومن أهل يثرب إلا قليلا[٨١].

وعلى هذا نجح مصعب بن عمير ﷺ إلى حد كبير في نشر الإسلام بالمدينة، وأضحى أهلها مؤهلين لأن يعقدوا مع النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية. وجرى ذلك فعلا في العام الثالث عشر من البعثة، حيث اجتمع بوفد الأوس والخزرج في موسم الحج عند العقبة، وكان أهم بنود هذه البيعة توفير المنعة للرسول ﷺ والوقوف إلى جواره في تبليغ دعوة الإسلام إلى

---

٧٧ ابن هشام، السيرة ٤٣١/١،٤٣٣.

٧٨ المصدر نفسه ٤٣٠/١. يقصد بذلك البيعة التي بايعها النبي ﷺ لنساء أهل مكة في اليوم الثاني من فتحها عام ثمان من الهجرة.

٧٩ المصدر نفسه ٤٣٤/١.

٨٠ المصدر نفسه ٤٣٧/١، ٤٣٨.

٨١ المصدر نفسه ٤٣٧/١، ٤٣٨؛ الصالحي، سبل الهدى ١٩٩/٣ .

الناس ولهذا قال لهم "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم "[٨٢]. وفي لفظ آخر "على أن تنصروني إذا قدمت يثرب فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم"[٨٣].

ولعل ما سبق ينقض ما ذكره عبد العزيز الدوري[٨٤] من أن الرسول ﷺ حارب منذ البدء العصبية القبلية، وهو ما استحث خصومه سواء أكانوا من أهل مكة أم من الأعراب للذود عنها وصيانتها ضد الهجوم الإسلامي، فهذا لا يصح ولم يثبت في العهد المكي، بل على العكس من ذلك فإن هذه العصبية هي التي أحاطت النبي ﷺ ودعوته بالحماية والمنعة في هذه المرحلة كما تبين.

ثالثا: العصبية القبيلة في العهد المدني

أكدت الشواهد التاريخية على أن العصبية القبلية حمت الدعوة في عهدها المكي حسب البيان الآنف. ولكن بعد الهجرة إلى المدينة أصبحنا أمام معطيات جديدة من تاريخ الـدعوة قوامها النصرة والتمكين لهذا الدين، ومن ثم أصبحت العصبية في وضعية المواجهة والصدام مع قيم هذا الدين ومقاصده، حيث غدا المفهوم الغالب عنها في هذا العهد أنها دعوى للفرقة والتنازع والانتصار للظلم، في مقابل دين الإسلام الذي يدعو إلى الوحدة والتـآخي وإقـرار العدل بين الناس.

ومن ثم كان لابد من كيان جديد ينضوي تحته جميع هذه العصبيات، وأن يكون الولاء الرئيس إليه لتحقيق مقاصد هذا الدين، ويكون في الوقت ذاته بمثابة عامل وقائي ضد سوءات العصبية الجاهلية، وقد تمثل هذا الكيان في مفهوم الأمة، ولهذا لم يكن من باب المصادفة أن يكون أول إشارة للأمة في أول سور القرآن نزولا في المرحلة المدنية وهي سورة البقرة، فجاء قوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } (١٤٣) سورة البقرة ، ثم جاءت إشارة أخرى للأمة في ثالث سور القرآن نزولا وهي سورة آل عمران فقال تعالى { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (١١٠) سورة آل عمران.

---

٨٢ ابن هشام، السيرة ٤٤٣/١، إسناد هذه الرواية حسن، وقد صححها ابن حبان كما ذكر ابن حجر. انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، ١٣٧٩هـ، ٢٢١/٧ .

٨٣ أحمد بن حنبل، المسند (١٤٦٩٤) ٣٣٩/٣.

٨٤ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، ط٢، ١٩٦١م، ص٤٠.

هذا مع التأكيد على أن أساس هذه الوحدة الاعتصام بهذا الدين الذي ألف بين قلوبهم، وبعث فيهم الوعي بوحدتهم والشعور بأهميتهم بوصفهم أمة واحدة، بعد أن كانوا شرازم متناحرة تحركها حمية الجاهلية[٨٥]، مما جعلهم مؤهلين لحملهم مسئولية تبليغ رسالة هذا الدين إلى العالمين، وهذا المعنى ظاهر جلي في قوله تعالى{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (١٠٣) سورة آل عمران.

تشريع المؤاخاة وأثرة في مواجهة العصبية القبلية:

وعلى هذا كان لابد أن تتحول هذه التوجيهات القرآنية إلى فعل وواقع ملموس على الأرض من خلال ممارسات إجرائية، وهذا ما توخاه النبي ﷺ وحرص على إنفاذه من خلال نظام المؤاخاة، وهو ما يعد تحولا نوعيا بل انقلابا على قيم العصبية القبيلة وأعرافها، التي جعلت من التمايز الطبقي أساسا في تكوين البنية الاجتماعية في العصر الجاهلي على مدار أزمنة مديدة.

وفي تقدير الباحث المعتمد على استقراء الشواهد التاريخية، فإن القيام بالإعداد لنظام المؤاخاة لم يبدأ إجرائيا بعد مقدِم النبي ﷺ إلى يثرب كما هو شائع ومشهور، بل جرت مقدماته قبل الهجرة إليها بمكة، لأن عملا كهذا لم يكن هيّنا على الصعيد الاجتماعي، بل من الصعوبة بمكان أن يتحقق بمجرد الإعلان عنه بالمدينة، ولهذا سنلحظ أنه مر بعدد من الأطوار إلى أن توج في صورته النهائية بها.

وتاريخيا وحسب إشارة المصادر فأول طور لهذه المؤاخاة، بدأه الرسول ﷺ مع بطون الأوس التي أنهكتهم مرارة الصراع القبلي على مدار أزمنة طوال، كان آخرها حرب "بعاث" التي كانت المهيئة لنفوسهم لأن يتوحدوا تحت مظلة هذا الدين، ويستدل على ذلك من قول السيدة عائشة رضي الله عنها:" كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام "[٨٦]. وهو ما أفضى إلى التحام الجميع وتوحدهم تحت مسمى جديد لا يشي بأي مسحة قبلية وهو "

---

٨٥ خلص (ناجل) إلى هذه النتيجة في كتابه "الدولة والمجتمع الإيماني في الإسلام"
V.T.Nagel, *Staat und Glaubensgemeinschaft im Islam, zurich/ munchen*, 1981, S.191.

٨٦ البخاري، الصحيح (٣٥٦٦) ١٣٧٧/٣.

الأنصار"، وذلك إبعادا لروح العصبية المقيتة، وإزالة كل ما من شأنه أن يذَكِّر بالعداء القديم بين الأوس والخزرج[٨٧].

ثم أخذت هذه الوحدة ترسخ وتتسع دائرتها في يثرب بعد بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية التي ترتب عليها كما أشرنا آنفا الهجرة إلى المدينة. ومن ثم أضحت نفوس الأنصار بهذه الحالة الإيمانية مهيأة بحكم كونهم أهل الديار لاستقبال المهاجرين والإحسان إليهم من خلال أرقى صور التضحية والإيثار{ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (٩) سورة الحشر.

أما الطرف الثاني في المؤاخاة وهم المهاجرون، فكانوا ينزعون من عصبيات وانتماءات قبلية مختلفة، هذا إضافة إلى طبقة العبيد والأرقاء، لذا كان لابد من إحداث حالة من التآخي بينهم قبل هجرتهم إلى يثرب، لأن الأمر برمته قد يولّد مشكلة اجتماعية، سواء أكان بين المهاجرين أنفسهم، أم بينهم وبين عصبيات قبائل الأوس والخزرج (الأنصار)، ولهذا بادر الرسول ﷺ بإجراء مؤاخاة بينهم قبل هجرتهم إلى المدينة، وسَمَها ابن حبيب البغدادي (ت٢٤٥هـ/٨٥٩هـ)[٨٨] بـ"مؤاخاة مكة"، وقد عنون لها بقوله:" مؤاخاة مكة بين أصحابه المهاجرين قبل الهجرة، وكان آخى بينهم على الحق والمواساة "[٨٩].

إلا أن ابن سعد[٩٠] ذكر بأسانيد الواقدي إلى جماعة من التابعين، أن هذه المؤاخاة جرت بالمدينة وليست بمكة، وهذا الخلاف يمكن استيعابه بإعمال منهج الجمع، على أساس أن المؤاخاة أجراها النبي ﷺ مرتين الأولى بمكة قبل الهجرة، والثانية بعد هجرتهم إلى المدينة وذلك من باب التأكيد على مقصد المؤاخاة المكية[٩١].

وذهب ابن قيم(ت٧٥١هـ/١٣٥٠هـ)[٩٢] إلى رفض مؤاخاة المهاجرين بعضهم مع بعض، مستدلا بأن المهاجرين كانوا مستغنين بأخوة الإسلام، وأخوة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار، وتبنى ابن تيمية (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧هـ) وتلميذه

٨٧ الشريف، مكة والمدينة ص٣١٥.

٨٨ المحبر، تحقيق، إيلزة ليختن شتيتر، بيروت، د.ت، ص٧٠ .

٨٩ ابن حبيب، المحبر ص٧١؛ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق، شوقي ضيف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣هـ، ٩٢/١ .

٩٠ الطبقات ١/ ٢٣٨.

٩١ انظر ابن حجر، فتح الباري ٢٧٠/٧.

٩٢ زاد المعاد ٦٤/٣.

ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢هـ) وغيرهما أيضا هذا المذهب ومستندهم في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض وليتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا من مهاجري لمهاجري[٩٣].

إلا أن ما ذهبوا إليه فيه نظر لأنهم أغفلوا عامل الفوارق العشائرية القائمة على قوة العصبية، وكذا التمايز الطبقي بين الأحرار والموالي منهم، وهذا ما تنبه إليه ابن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) بحسه التاريخي وبينه في سياق رده على ابن تيمية فقال: وهذا" إغفال عن حكمة المؤاخاة لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى"[٩٤].

على أية حال آخى الرسول ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب، وبين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وبين أبي بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب وبلال مولى أبي بكر، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله[٩٥].

وبهذا أضحى المهاجرون والأنصار مؤهلين جميعا لدخول الطور الثالث من نظام المؤاخاة وهو ذروتها، بل هو مما يقتضيه واقع الحال الاجتماعي الجديد بالمدينة بعد الهجرة، خاصة وأن أنفة المهاجرين وحميتهم تقتضي الإسراع بمعالجة أحوالهم بتشريع يبعد عنهم أي شعور بأنهم عالة على الأنصار[٩٦]. ولهذا جاء تشريع هذه المؤاخاة في العام الأول من الهجرة، بل هناك من ذهب أن النبي ﷺ أجرى المؤاخاة قبل بناء مسجده[٩٧]، على أساس " الحق والمؤاساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام"[٩٨].

والمتأمل في تشريع التوارث بينهم دون ذوي الأرحام، سيدرك أنه من أهم مقاصده إحلال رباط أخوة الإسلام، محل أي رباط إنساني آخر، وإسقاط فوارق النّسب والتمايز القبلي، والإحاطة بأي مظهر من مظاهر العصبية القبلية قد يطل برأسه على المشهد.

---

٩٣ انظر، ابن كثير، البداية والنهاية ٢٧٨/٣؛ ابن حجر، فتح الباري ٢٤١/٧.

٩٤ فتح الباري ٢٤١/٧.

٩٥ ابن حبيب، المحبر ص٧٠؛ البلاذري، الأنساب ٢٧٠/١.

٩٦ العمري، أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنورة، د.ت، ص٢٤٣

٩٧ الصالحي، سبل الهدى ٣٦٧/٣.

٩٨ ابن سعد، الطبقات ٢٣٨/١؛ ابن حبيب، المحبر ص٧١؛ البلاذري، الأنساب ٢٧٠/١ .

أما عن الشواهد التي تجلت فيها أخوة الإسلام وعلت فيها على أخوة النسب والعصبية للقبيلة، فمن أبرزها: نموذج مؤاخاة سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، يقول عبد الرحمن بن عوف ﷺ :" لما قدمنا إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالا فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتيّ هويت نزلت لك عنها فإذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك هل من سوق فيه تجارة ؟ "[٩٩].

ووصل الحال بالأنصار في هذه المرحلة أنهم اقترعوا على سكنى الأنصار في دورهم[١٠٠]، بل قالوا للنبي ﷺ:"إن شئت، فخذ منا منازلنا"[١٠١]، كما قالوا له ﷺ أيضا:" اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل.. "[١٠٢].

وفي الجانب الآخر فإن المهاجرين قد شهدوا لإخوانهم الأنصار بما بذلوه حيالهم من عظيم الإيثار والفضل حتى إنهم قالوا للنبي ﷺ:" يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم اللّه لهم" [١٠٣].

ليس هذا فحسب بل وجدنا مصعب بن عمير ﷺ في غزوة بدر، يمر على أخيه أبا عزيز ابن عمير وهو في أسر رجل من الأنصار، فقال مصعب للأنصاري :" شد يدك عليه فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك "[١٠٤] فقال له أبو عزيز:" يا أخي، هذه وصاتك بي، فقال له مصعب: إنه أخي دونك "[١٠٥].

والظاهر أن نظام المؤاخاة حقق جانبا كبيرا من المقصد المنشود، ولهذا نسخ تشريع التوارث على غير رباط النسب والدم عقب غزوة بدر[١٠٦]، لما نزل قوله تعالى { وَأُوْلُواْ

[٩٩] البخاري، الصحيح (١٩٤٣) ٧٢٢/٢.
[١٠٠] البخاري، الصحيح (٦٦١٥) ٢٥٧٥/٦.
[١٠١] البلاذري، الأنساب٢٧٠/١.
[١٠٢] البخاري، الصحيح (٢٢٠٠) ٨١٩/٢.
[١٠٣] احمد بن حنبل، المسند (١٣٠٩٧) ٢٠٠/٣ .
[١٠٤] ابن هشام، السيرة ٦٤٥/١.
[١٠٥] المصدر نفسه ١/ ٦٤٦.
[١٠٦] ابن سعد، الطبقات ٢٣٨/١.

الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (٧٥) سورة الأنفال، وبذلك "انقطعت المؤاخاة في الميراث ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه "[١٠٧].

ولا يعنى ما سبق صحة ما أورده ابن سعد (ت٢٣٠هـ/٨٤٤هـ)[١٠٨] من إنكار البعض لكل مؤاخاة كانت بعد بدر، لأن نسخ المؤاخاة على أساس التوارث لا يدل على أن تشريع المؤاخاة قد انتهى بالكلية، بل ظلت المؤاخاة قائمة على النصر والرفادة (الإعانة) والنصيحة كما ذكر ابن عباس[١٠٩]. والشواهد التاريخية تؤكد أن النبي ﷺ كان يجدّدها بحسب من يدخل في الإسلام، ولهذا آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رضي الله عنهما[١١٠]، ومعلوم أن سلمان أسلم بين أحد والخندق، كما آخى بين معاذ بن جبل وجعفر بن أبي طالب[١١١] الذي قدم من الحبشة بعد فراغ النبي ﷺ من غزوة خيبر في العام السابع من الهجرة. وكذا مؤاخاته ﷺ بين معاوية بن أبي سفيان والْحُتَاتِ بن يزيد المجاشعي، والثابت أن معاوية بن أبي سفيان من مسلمة الفتح، وإسلام الحتات كان في العام التاسع من الهجرة عندما جاء مع وفد بني تميم إلى المدينة[١١٢].

بنود صحيفة المدينة التي عنيت بأمر العصبية القبلية.

ولم تقف جهود النبي ﷺ في هذا السياق عند هذا الحد، بل استمرت من خلال إجراء آخر تمثل في صحيفة المدينة، التي كانت بمثابة دستور أراد به ﷺ تنظيم العلاقات بين جميع القبائل والطوائف التي تقطن المدينة، بل توحيد القبائل في دولة واحدة يترأسها الرسول ﷺ مركزها المدينة[١١٣]، حيث نجدها تستهل أول بنودها بالتأكيد على هوية المجتمع الجديد "هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس.."[١١٤]، وهذا يعني إسقاط مبدأ العصبية للقبلية،

---

١٠٧ المصدر نفسه ٢٣٨/١.

١٠٨ المصدر نفسه ٨٤/٤.

١٠٩ البخاري، الصحيح (٤٣٠٤) ١٦٧١/٤؛ ابن حجر، الفتح ٢١٠/٤؛ الصالحي، سبل الهدى ٣٦٨/٣.

١١٠ ابن هشام، السيرة ٥٠٧/١.

١١١ المصدر نفسه ٥٠٦/١.

١١٢ المصدر نفسه ٥٦١/٢، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق، عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ، (١٦١٧) ٢٥/٢.

113 J. Wellhausen, *Das arabische Reich und sein Sturz*, *Berlin ‹G.Reimer*, 1902, S.15

١١٤ ابن هشام، السيرة ٥٠١/١.

وإحلاله بكيان الأمة الذي استوعب به النبي ﷺ المهاجرين والأنصار بمختلف طبقاتهم وطوائفهم، وألغى ما بينهم من حدود وفواصل قبلية.

ومن بنود الصحيفة المهمة في هذا الشأن أيضا:" وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم"[١١٥]. وإذا كان من المستقر عليه في أعراف الجاهلية أنه لا يجير من أفراد القبيلة إلا من كان ذا شوكة ومكانة فيها، فإن هذا البند يؤكد أن حق الإجارة غدا لكل أفراد المجتمع حتى ولو كان أدناهم شأنا، وهو ما يعد نقضا صريحا لهذا العرف القبلي بل إلغاء لمبدأ التمايز الطبقي الذي كان يمارس بين أفراد القبيلة. كما أكدت الصحيفة أن أمر الإجارة ليس مطلقا بل قيدته بحسب ما تمليه المصلحة العامة لهذه الأمة، ولهذا منعت أي إجارة لمشرك أو لماله " وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسها "[١١٦].

أكدت الصحيفة كذلك على أن المرجعية في الحكم بين الناس لشريعة هذا الدين ولصاحب الشرع النبي محمد ﷺ، ولهذا ورد فيها " وأنه ما كان بين أهل الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ "[١١٧]. وكذا أيضا" وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ "[١١٨]. وهذا يعني أيضا أن الصحيفة أسقطت مقوما رئيسا من مقومات العصبية للقبيلة، وهو سلطة شيخ القبيلة في الحكم بأعرافها التي قد تنطوي في كثير منها على الظلم والجور، وذلك بأن تكون المرجعية لأي خلاف أو شجار ينشأ بين آحاد هذا المجتمع الجديد أو طوائفه لشريعة الإسلام وأحكامها.

ومن الأمور التي نظمتها الصحيفة في هذا السياق كذلك، ضبط عملية الأخذ بالثأر على أساس القصاص العادل، بحيث لا يطال القصاص إلا من اقترف القتل، وليس أفرادا آخرين من أبناء القبيلة لا صلة لهم بذلك حسبما بينا من قبل. ولهذا ورد في أحد بنودها " وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه "[١١٩]. وبهذا رفع مبدأ الثأر بشكله القبلي ونقلت مسئوليته إلى الجماعة الإسلامية[١٢٠].

---

١١٥ المصدر نفسه ١/٥٠٢.

١١٦ المصدر نفسه ١/٥٠٣.

١١٧ ابن هشام، السيرة ١/٥٠٤.

١١٨ المصدر نفسه ١/٥٠٤.

١١٩ المصدر نفسه ١/٥٠٣.

120 *Wellhausen*, *Op. Cit.* , S.9.

وفي ذات الوقت لم تتجاهل الصحيفة القبيلة بوصفها كيانا اجتماعيا، وأكدت على أنه لكل قبيلة ربعتها(١٢١)، أي على الحال التي جاء الإسلام وهم عليها، كي لا يؤجج الأنفة والحمية الجاهلية لدى أفرادها، ليس هذا فحسب بل أكدت الصحيفة مسؤولية القبيلة عن كل عقل أو فداء ينال أحد أفرادها " وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل"(١٢٢).

مواجهة النبي ﷺ لما كان يطرأ على المجتمع من مظاهر العصبية القبلية:

على الرغم مما قدمه النبي ﷺ من سبل إجرائية لمواجهة العصبية القبيلة، كي لا تنعكس مثالبها على هذا المجتمع الجديد فتهدد سلمه وأمانه، فإنه أحيانا ما كان يظهر بين الحين والآخر بعض نوازعها وصورها، ولكن المستقرئ بدقة لحجم هذه الممارسات سيلحظ أنها كانت استثناءات من السياق العام، الذي تغلّبت فيه أخوة الدين على الحمية والعصبية. وتُظهِر الروايات أن النبي ﷺ كان يقف حيالها بكل حسم، ولعل أبرز الشواهد الدالة على ذلك:

ما جرى في إحدى الغزوات حيث ضرب رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ :" ما بال دعوى الجاهلية، قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنها منتنة ". وقد حاول عبد الله بن أبيّ بن سلول أن يعود بهذا الموقف إلى دائرة العصبية والصراع القبلي بين الجانبين ولكن محاولته باءت بالفشل(١٢٣).

ومن هذه الشواهد أيضا ما رواه أبو ذر الغفاري ﷺ قال:" كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها، فذكرني إلى النبي ﷺ، فقال لي: أساببت فلاناً ؟، قلت: نعم، قال: أفنلت من أمه ؟، قلت: نعم، قال: إنك امرؤ فيك جاهلية.."(١٢٤).

ومن ذلك أيضا الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم ﷺ حين بعثه إلى بني الحارث بن كعب باليمن في العام العاشر من الهجرة، حيث أمره فيه أن ".. ينهى إذا كان بين الناس هَيْجٌ، عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن

---

١٢١ ابن هشام، السيرة ٥٠١/١، ٥٠٢.

١٢٢ المصدر نفسه ٥٠١/١، ٥٠٢.

١٢٣ مسلم، الصحيح (٢٥٨٤) ١٩٩٨/٤؛ البخاري، الصحيح (٣٣٣٠) ١٢٩٦/٣.

١٢٤ البخاري، الصحيح (٣٠) ٢٠/١؛ مسلم، الصحيح (١٦٦١) ١٢٨٣/٣ .

لم يدع إلى الله ودعا إلى العشائر والقبائل، فليقطعوا بالسيف، حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له "[125].

التوجيهات والوصايا النبوية للحث على نبذ الوجه القبيح للعصبية:

تشير وقائع السيرة إلى أن النبي ﷺ لم تتوقف ممارساته حيال حصار الوجه الذميم للعصبية القبلية عند حدود الإجراءات الحاسمة المباشرة، بل اعتمد أيضا أسلوب التوجيه والإرشاد الدعوي طوال الفترة المدنية، حسبما تقتضيه المواقف والمناسبات، طلبا لتغيير ما علق في نفوس القوم من مفاهيم خاطئة في هذا الشأن، وشحذ الهمم لتصبح واعية متأهبة لرفض ما قد يتخلّف عن هذه العصبية من مثالب وسوءات، ومن أمثلة ذلك:

قوله ﷺ :" أربع في أمتي من أمر الجاهلية..الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب .."[126]، وكذا قوله ﷺ:" قال رسول الله ﷺ انصر أخاك ظالما أو مظلوما. فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره ؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره"[127]. وقوله ﷺ :" من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلة جاهلية "[128].

وفي حجة الوداع أراد النبي أن يفيد من هذا الجمع الغفير للصحابة ليؤكد ويقرر إسقاط كل دعاوى حمية الجاهلية، وقد جعل من نفسه أسوة ومثالا عمليا على صدق ما يدعو الناس إليه في هذه الوصية، وذلك في جانب وضع الدماء والأخذ بالثار على الوجه الظالم، الذي كان من خصائص العصبية للقبيلة في الجاهلية وعن ذلك قال:" ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث[129] كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل"[130].

---

[125] ابن هشام، السيرة ٥٩٤/٢، محمد بن علي بن طولون، كتب سيد المرسلين، تحقيق، محمود الأرناؤوط، بيروت، ط١٤٠٧،٢هـ ١٩٨٧م، ص١٣٩، ١٤٠.

[126] مسلم، الصحيح (٩٣٤) ٦٤٤/٢

[127] البخاري، الصحيح (٦٥٥٢) ٢٥٥٠/٦.

[128] أحمد بن حنبل، المسند (٤٨٩٨) ٢٢/٦

[129] كان اسمه آدم بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا في قبيلة هذيل، فقتله بنو ليث بن بكر في حرب كانت بينهم، حيث أصابه حجر فقتله. الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٦) ١/ ٢٥٧.

[130] مسلم، الصحيح (٣٠٠٩) ٣٩/٤.

اتصال النبي ﷺ بالوجه الإيجابي للعصبية القبلية:

بيّنا من قبل أن العصبية انطوت على وجه إيجابي وآخر سلبي، وبينا كذلك كيف أن النبي ﷺ حاصر الوجه السلبي وواجه من أجل الحفاظ على سلم المجتمع ووحدته. أما ما يتعلق بالوجه الإيجابي فلنا أن نتساءل.. كيف تعاطى معه النبي ﷺ ؟..هل أعرض عنه لكونه من قرائح الجاهلية ؟ .. أم تواصل معه ؟.

في الحقيقة إن المتأمل في واقع السيرة سيدرك أن النبي ﷺ لم يعمد إلى إعمال مبدأ الرفض أو المصادرة إلا مع صور العصبية التي تتصادم مع دين الإسلام شريعة وعقيدة وأخلاقا، أما ما عدا ذلك فاتصل بها الرسول ﷺ خاصة مع ما تنطوي عليه قيم إيجابية، بل ذهب دونر (Donner)[١٣١] أنه جرى توظيفها في صالح الدولة وخدمتها.

ولعل من أبرز الشواهد الدالة على ذلك ما نهجه الرسول ﷺ حيال معارف الأنساب التي كانت تعد كما بينا من أهم خصائص العصبية القبلية، وعلى الرغم من إقراره ﷺ بأن التفاخر بالأحساب من الجاهلية، فإنه تجاوز هذا الوجه المذموم، ووجهها اجتماعيا لتوطيد صلات الأرحام بين أفراده، فعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :" اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم، فإنه لا قرب لرحم إذا قطعت.."[١٣٢]. وفي رواية أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:" تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم.."[١٣٣].

لم يقف النبي ﷺ بالأنساب عند هذا الحد، بل نجده يوظفها عمليا في توزيع عطاء سهم ذي القربى حسبما تقرر في قوله تعالى { وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٤١) سورة الأنفال. حيث أن آلية التوزيع كانت تقوم على معرفة الأنساب، لتحديد الأقرب نسباً للرسول ﷺ، ويؤكد ذلك ما رواه جبير بن مطعم ﷺ أنه " أتى النبي ﷺ هو وعثمان فسألاه أن يقسم لهم، كما قسم لبني هاشم والمطلب. وقالا: إن قرابتنا واحدة، أي أن هاشماً والمطلب ونوفلاً جد جبير وعبد شمس جد عثمان أخيه، فأبى وقال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد "[١٣٤].

---

131 F.Donner.*The Early Islamic Conquests,* Princeton/new Jersey, 1981, 68.

١٣٢ الحاكم ، المستدرك (٣٠١) ١/١٦٥.

١٣٣ الترمذي، السنن، "باب ما جاء في تعليم النسب" (١٩٧٩) ٤/٣٥١.

١٣٤ ابن حجر، الإصابة (١٠٩٣)١/٤٦٢، بيّن ابن كثير أن سبب كون النبي ﷺ صرف سهم ذوي القربى إلى بني هاشم وبني المطلب؛ هو أن بني المطلب ناصروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له (مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية

من الأمور المتصلة بالعصبية وتواصل معها النبي ﷺ كذلك حد "القسامة" وهي الدية، بل أقرها ﷺ" على ما كانت عليه في الجاهلية "[١٣٥]، وأضحت بذلك ضمن حدود الإسلام، وذلك لما فيها من إعلاء لشأن النفس الإنسانية ومنزلتها ودرء الاستهانة بها.

ومن هذه الأمور أيضا الأحلاف، فمن المعلوم أن الأحلاف في الجاهلية كانت على نوعين: الأول أحلاف تعقد بين القبائل على مكارم الأخلاق من إقامة العدل ونصرة المظلوم كحلف المطيبين وحلف الفضول. ويمثل النوع الثاني أحلاف كانت تعقد على القتال بين القبائل والغارات والتوارث ونصر الحليف ولو كان ظالماً ومنها ما كان يعقد.

أما النوع الأول فهو ما أقره النبي ﷺ، وهو الذي يعنيه بقوله:" أيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة "[١٣٦]، ومثال ذلك حلف الفضول الذي شهده النبي ﷺ قبل الإسلام، وقال عنه ﷺ بعد بعثته:" لقد شهدت في دار ابن جدعان حلفاً، ما أحبُّ أن لي به حُمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"[١٣٧]. أما النوع الثاني فلم يقره الإسلام بحال وهو المقصود من قول النبي ﷺ " لا حلف في الإسلام .."[١٣٨].

ومن ناحية أخرى أفاد النبي ﷺ من تقاليد عقد الأحلاف في الجاهلية سياسيا، لحماية المدينة ضد اعتداءات قريش ومن ناصرها، وبقصد عزلها وحصارها سياسيا واقتصاديا، وكان ذلك من خلال الدخول في معاهدات وأحلاف دفاعية مع القبائل المحيطة بالمدينة، التي كانت قوافل قريش تخترق أراضيها وهي في طريقها إلى الشام[١٣٩].

ومن أمثلة ذلك، الحلف الذي أبرمه ﷺ مع قبيلة جهينة لما قدم المدينة فـ" جاءته جهينة فقالوا: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك وتؤمنا فأوثق لهم فأسلموا.."[١٤٠]، ومن جهينة الذين تحالفوا مع النبي ﷺ مجدي بن عمرو الجهني وكان

للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله). وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل وإن كانوا أبناء عمهم فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالئوا بطون قريش على حرب الرسول. تفسير القرآن العظيم، تحقيق، سامي بن محمد سلامة، ج٤، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، ص٦٣

١٣٥ النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار البنداري، سيد كسروي، بيروت، ط١؛ ١٤١١هـ ١٩٩١م، (٦٩١٠) ٢٠٦/٤.

١٣٦ مسلم، الصحيح (٦٦٢٨) ١٨٣/٧.

١٣٧ البيهقي، السنن (١٢٨٥٩) ٣٦٧/٦.

١٣٨ مسلم، الصحيح (٦٦٢٨) ١٨٣/٧.

١٣٩ مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص٣٢٧.

١٤٠ ابن حنبل، المسند (١٥٣٩) ١٧٨/١؛ الصالحي، سبل الهدى ١٦/٦.

ذلك بعد سبعة أشهر من الهجرة[١٤١]. كما تحالف مع بني زرعة وبني الربعة من جهينة وكتب لهم كتابا بذلك[١٤٢]. كما عاهد ﷺ بني ضمرة من كنانة في غزوة "ودان" وكتب لهم كتابا بذلك سنة ٢هـ[١٤٣]. وفي العام نفسه كما عقد في غزوة ذي العشيرة رسول الله ﷺ معاهدة وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة[١٤٤].

ولم تتوقف سياسة النبي ﷺ في عقد المعاهدات والأحلاف عند بدايات العهد المدني، بل ظل مقيما على إبرامها حسبما تقتضي مصلحة الدعوة والدولة، وآية ذلك إبرامه ﷺ صلح الحديبية مع قريش في العام السادس من الهجرة، الذي حقق به كسبا دينيا وسياسيا عظيما للمسلمين، فعلى الصعيد الديني أتاح للنبي ﷺ توسعة نطاق الدعوة داخل الجزيرة العربية وخارجها، وهو ما أدى إلى دخول أعداد غفيرة إلى الإسلام[١٤٥]. أما على الصعيد السياسي فحمل هذا الصلح بين طياته اعترافاً ضمنياً من المشركين بدولة الإسلام الناشئة، وبأن محمداً ﷺ لم يكن ثائراً عليها أو متمرداً على حكمها، لأن صلح المهادن لا يعقد بين الدولة والثائرين عليها، وإنما يعقد بين هيئتين لهما شخصية وجودية قائمة[١٤٦]. وعلى الصعيد السياسي أيضا أتاح هذا الصلح للنبي ﷺ أن يعقد حلفا مع قبيلة خزاعة حسبما تقرر في أحد بنوده، وهو ما سيكون سببا لفتح مكة في العام الثامن من الهجرة كما هو مبين ومشهور في كتب السيرة.

الخـــاتمـــــة:

وتأسيسا على ما سبق فقد خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- بينت الدراسة ماهية العصبية القبيلة ومقوماتها.
- وقفت الدراسة على أثر شرف نسب النبي ﷺ في دعم الدعوة ونشرها بين القبائل في الجزيرة العربية.
- أوضحت الدراسة عظيم أثر عصبية بني هاشم وبني عبد المطلب التي قادها أبو طالب في حماية النبي ﷺ ودعوته حتى العام العاشر من البعثة.

---

١٤١ ابن هشام، السيرة ٥٩٥/١؛ ابن سعد، الطبقات ٦/٢.

١٤٢ ابن سعد، الطبقات ٢٧٠/١.

١٤٣ ابن هشام، السيرة ٥٩١/١؛ ابن سعد، الطبقات ٢٧٤/١.

١٤٤ ابن سعد، الطبقات ٩/٢؛ ابن هشام، السيرة ٥٩٩/١ .

١٤٥ ويؤكد ابن هشام هذا المعنى بقوله، " أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر ابن عبد الله، ثم خرج في فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف ". السيرة النبوية ٣٢٢/٢.

١٤٦ حسن، محمد عبد الغني حسن، المعاهدات والمهادنات في الإسلام، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٨.

- كشفت الدراسة عن أن باعث العصبية القبلية كان وراء كسر الحصار الذي فرضته قريش على النبي ﷺ وعشيرته وأصحابه في شعب أبي طالب.
- تبين كذلك أن وفاة أبي طالب هي التي دفعت بالنبي ﷺ للخروج إلى الطائف للبحث عن عصبية أخرى تحميه وتمكنه من تبليغ دعوته.
- اتضح كذلك أن الرسول ﷺ كان يستثمر في بعض الأحيان عامل العصبية القبلية لصالح الدعوة.
- أبانت الدراسة عظيم أثر إجارة المطعم بن عدي للنبي ﷺ، حيث مكنته من دخول مكة، والقيام بدعوة القبائل إلى أن أتيح له لقاء الأوس والخزرج.
- كشفت الدراسة عن أن ثمة تغيرا في تخطيط النبي ﷺ بعد دخوله مكة في جوار المطعم بن عدي، حيث كان جهده موجها للبحث عن عصبية تحمي الدعوة خارج مكة لخرق هذا الحصار الذي فرضته عليها قريش بها.
- أوضحت الدراسة كيف أن إجارة الأوس والخزرج حققت ما كان يخطط له النبي ﷺ في الخروج من مكة، وذلك بالهجرة إلى المدينة.
- كشفت الدراسة عن أن حادث المؤاخاة مر بأطوار ثلاثة بدأت بمكة إلى أن بلغ ذروته بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بالمدينة، وبينت كذلك عظيم أثرها في مواجهة مثالب العصبية القبلية وسوءاتها في العهد المدني.
- وقفت الدراسة على بنود صحيفة المدينة التي عنيت بأمر تقويض الجانب السلبي للعصبية القبلية.
- بينت الدراسة أن مظاهر العصبية القبلية أحيانا ما كانت تطل برأسها على واقع المجتمع الإسلامي الجديد في العهد المدني، وإن كان حضورها أمرا استثنائيا.
- أوضحت الدراسة أن النبي ﷺ كان له منهج واضح حيال ما يطرأ على المجتمع من هذه المظاهر، فأحيانا يأخذ شكل المواجهة الحاسمة، وفي أحيان أخرى يتخذ أسلوب الإرشاد والتوجيه الدعوي.
- كشفت الدراسة عن أن النبي ﷺ لم يصادر كل صور العصبية القبلية في العهد المدني، ولكنه تواصل مع الوجه الإيجابي منها، ووظفه وأفاد منه في خدمة المجتمع والدولة.

قائمة المصادر والمراجع

الأزهري: محمد بن أحمد بن الأزهري (٣٧٠هـ/٩٨٠م)

تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت، ط١، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م

الألوسي: محمد شكري الألوسي

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، بيروت، دار الكتاب المصري، د.ت

البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)

الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى الدين ألبغا، بيروت، ط٣، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ – ١٩٧٨م

البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)

أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، بيروت، ط١، دار الفكر، ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م

البيهقي: أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م)

دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥ه

السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، مكتبة دار الباز، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م

الترمذي: محمد بن عيسي الترمذي (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)

السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت

الجابري: محمد عابد الجابري

العصبية والدولة، بيروت، ط٦، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤م

الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٤٠٥/١٠١٤م)

المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ –١٩٩٠م

ابن حبيب: محمد بن حبيب بن أمية البغدادي (ت٢٤٥هـ/٨٥٩هـ)

المحبر، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، د.ت

ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)

الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ

فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة،١٣٧٩هـ

حسن: محمد عبد الغني حسن
المعاهدات والمهادنات في الإسلام، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م،
الحصري: ساطع الحصري
دارسات عن مقدمة ابن خلدون، بيروت، ط٣، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م، ص٣٤٣
ابن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ/٨٥٥هـ)
المسند، **القاهرة، مؤسسة قرطبة، د.ت**
ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت
خليل: عماد الدين خليل
دراسات في السيرة النبوية، بيروت، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م
أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٥٧هـ/٨٧٠م)
السنن، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، د.ت
الدوري: عبد العزيز الدوري
مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، ط٢، المطبعة الكاثوليكية،١٩٦١م
الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م)
سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، ط٩، مؤسسة الرسالة ،١٤١٣هـ
الرافعي: مصطفى صادق الرافعي
تاريخ آداب العرب، بيروت، ط٤، دار الكتاب العربي،١٣٩٤هـ-١٩٧٤م
رزق الله: مهدي رزق الله
السيرة النبوية، الرياض، ط١، مجمع الملك فهد، ١٤١٢هـ-١٩٩٢هـ
ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري(ت٢٣٠هـ/٧٨٥م)
الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د.ت
ابن سيد الناس: أبو الفتح محمد بن محمد اليعمري (ت٧٣٤هـ/١٣٣٤م)
عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت، ط١، دار القلم ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م
الشريف: أحمد إبراهيم الشريف
مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، بيروت، دار الفكر العربي، د.ت

الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي (ت٩٤٢هـ/١٥٣٥م)
سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
الصلابي: محمد علي الصلابي
السيرة النبوية، بيروت، ط٧، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
الطبري: محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٣م)
تاريخ الرسل والملوك، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ
ابن طولون: أبو الفضل محمد بن على بن أحمد (ت٩٥٣/١٥٤٦م)
كتب سيد المرسلين، تحقيق: محمود الأرناؤوط، بيروت، ط٢، مؤسسة الرسالة،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م
ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله القرطبي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)
الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة، ط٢، دار المعارف، ١٤٠٣هـ
عرجون: محمد صادق عرجون
محمد رسول الله ، دمشق، ط٢، دار القلم، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م
علي: جواد علي
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ط٤، دار الساقي، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م
العمري: انظر أكرم ضياء العمري
السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، د.ت
ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت٧٥١هـ/١٣٤٩م)
زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت، ط٢٧، مؤسسة الرسالة،١٤١٥هـ -١٩٩٤م
ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢هـ)
البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، بيروت، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م
تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الرياض، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م
ماجد: عبد المنعم ماجد
التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م

مسلم: مسلم بن حجاج القشيري (ت٢٦١هـ/٨٧٥م)

الجامع الصحيح، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت

محمد: إبراهيم علي محمد

السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، قطر، كتاب الأمة، ١٤١٧هـ

المقريزي: أحمد بن على المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)

إمتاع الأسماع، القاهرة، ط٢، لجنة التأليف والترجمة، د.ت

ابن منظور: محمد بن مكرم بن على (ت٧١١ هـ/١٣١١م)

لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، د.ت

الميداني: أحمد بن محمد الميداني (ت٥١٨هـ/١١٢٤م)

مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية،١٣٧٤هـ– ١٩٥٥م

الندوي: أبو الحسن الندوي

السيرة النبوية، القاهرة، ط٢، دار الشروق، ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م

النسائي: أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ/٩١٥هـ)

السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار البنداري، سيد كسروي، بيروت، ط١؛ دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ–١٩٩١م

ابن هشام: عبد الملك بن هشام الحميري (ت٢١٨هـ/٨٣٤م)

السيرة النبوي، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، د.ت

وات: و.م. وات

محمد ﷺ في مكة، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

F.Donner, The Early Islamic Conquests, Princeton/new Jersey, 1981

H. Gibb, Studies on the Civilization of Islam, London, 1962

V.T.Nagel,Staat und Glaubensgemeinschaft im Islam, Zurich/ Munchen, 1981

J. *Wellhausen*, Das *arabische Reich und sein Sturz*, Berlin:G.Reimer, 1902